تحية إلى فيليتسيا لانغر

عبد المجيد حمدان*

# فيليتسيا لانغر الراحلة عنا الباقية فينا

انضمت فيليتسيا، المحامية الشيوعية والإنسانة المحبة، إلى ركب الأحبة الراحلين، مُعرضة عن استرداد ديون لها في أعناق مناضلين فلسطينيين كثر، ولربما كان أكبرها في عنقي أنا.

بدأت معرفتي بفيليتسيا ـ الإنسانة المحبة الرائعة، والمحامية الشيوعية الشجاعة، والذكية، والمتفانية، والصلبة، والجريئة، والشديدة الإخلاص والحرص على كسب قضايا موكليها ـ في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣، عندما وكّلتها زوجتي للدفاع عني في إثر اعتقالي أول ساعات فجر العاشر من ذلك الشهر. ولأنه لم يتسنّ لها زيارتي، لأن اعتقالي كان احترازياً في أثناء الحرب، جاء لقائي الأول معها في مكتبها الكائن في مدخل شارع يافا/القدس. ولم يمضِ وقت طويل حتى كان اعتقالي الثاني فجر ٢٤ نيسان/أبريل ١٩٧٤. هذه المرة لم يُزجّ بي في الزنزانات، وإنما بُلّغت ساعة وصولي إلى مكتب إدارة السجن باعتقال إداري لثلاثة أشهر، تَجدّد ثلاث مرات متتالية في ستة أشهر في كل مرة.

زارتني فيليتسيا بعد شهر، وفق القانون آنذاك. حكت لي أخبار الخارج، وأخبار رفاقي الآخرين، إذ لا قضية ضدي، سوى ما قالوه عن خطري على الأمن، بحسب ملفي السري، تاركة في نفسي انطباعاً رائعاً عن شجاعتها وإخلاصها ونبل شخصيتها.

حدث بعد ذلك أن جاءت زوجتي لزيارتي مصطحبة ابنتي الصغرى سلام فقط. سألتها عن وديدة وسبب عدم حضورها. قدمت لي حجة قبلتها. لكن غياب وديدة عن الزيارات تكرر، وتكررت أعذار غيابها. لم تراودني الشكوك في أعذار زوجتي على الرغم من تعلق وديدة الشديد بي وتعلقي الشديد بها.

وفي ضحى أحد الأيام استدعتني الإدارة. كان أول ما خطر لي أن قراراً بإبعادي عن الوطن قد صدر. وضعوا الكلبشات في يدي، ونقلوني إلى سيارة جيب عسكرية من دون

* كاتب ومعتقل فلسطيني سابق، اشتهر باسم أبو وديدة.

**لانغر متحدثة في المؤتمر الثاني لنصرة الأسرى في برلين في أيار/مايو 2015**

حشر رأسي في الكيس، وحتى من دون عصابة على عيني. هو ليس إبعاداً إذاً.

سار الجيب، والجيب الآخر المرافق، على طريق الخليل ـ بيت لحم. وطوال الطريق بقيت أهدس: إلى أين يأخذونني؟ وغابت عن ذهني تماماً عبارة مرت عابرة في إدارة السجن، بأنهم ينقلونني لإجراء فحص طبي. مرت العبارة لأنني لم أكن أشكو من شيء، وليس من عادتهم منح المعتقل مثل هذه العناية.

ارتفعت هواجسي بعد عبور بيت لحم. وعند دير مار الياس سألني قائد الدورية سؤالاً عابراً عمّا إذا كان لديّ مريض في مستشفى. رددت بالنفي، لكن حين انحرف الجيب إلى طريق هداسا تضخمت هواجسي أكثر.

وصلنا إلى هداسا. عبرنا القاعة والقيود في يدي، وشبشب السجن في قدمي، وملابس السجن تثير مئات الأنظار نحوي. أمام المصعد قال لي قائد الدورية، وكان درزياً من حرس الحدود، إنهم جاءوا بي لزيارة ابنتي المريضة في المستشفى. وفي ثوانٍ كان المصعد قد نقلنا إلى الطبقة السادسة حيث دفعني الجنود إلى غرفة ابنتي. وكانت الصدمة هائلة. شعرت بدوار. ترنح جسدي وكدت أسقط من طولي.

ابنتي وديدة الحبيبة الجميلة والذكية جلد على عظم. رأسها مثل راحة يدي من فعل الأشعة التي عالجوها بها. حولاء العينين وعمياء لم ترني. سالت دموعي وغطت وجهي. وحالت الكلبشات دون احتضان ابنتي. فك قائد الدورية قيدي وجلس هو وسائر الجنود الثمانية على مبعدة بضعة أمتار مني. أخذت وديدة في حضني. كانت زوجتي تحكي من دون أن أعي شيئا ممّا تقول. فهمت فيما بعد أنها كانت تشجعني وتطالبني بعدم إبداء إشارة ضعف يستغلونها ضدي. بقيت نصف ساعة أحتضن ابنتي، أهزها ودموعي تتساقط عليها. حاولت زوجتي إعطائي كأس عصير فشلتُ في ابتلا ع جرعة واحدة منه.

في طريق العودة لم أنطق بحرف. وعندما وصلت إلى السجن، دخلت إلى غرفتي وحكيت لرفاقي ما جرى وأنا أشهق بكاء. طال الوقت والقلق ينهشني والحزن يلفني، ثم كان استدعائي للاستخبارات.

كنت أعرف أن الدورية قدمت تقريرها عني. وكنت أعرف أنني أخضع لمراقبة لصيقة، وأعرف أن ضابط الاستخبارات سيواجهني بهذا كله.

قال الضابط من دون مقدمات: لم أستدعك للتحقيق. أنت زرت ابنتك في هداسا. لا علاج لها عندنا. علاجها في أميركا. مستعدون لعلاجها هناك وأنت معها.

سألته: في مقابل ماذا؟

قال: تتعاون معنا.

أحسست بفوران الدم في رأسي. وانتهت المقابلة بأسرع ممّا توقعوا.

وجاءت زوجتي لزيارتي. حكت لي أن فيليتسيا قدمت مذكرة في إثر أُخرى مطالبة بالإفراج عني للعناية بابنتي المريضة. أرسلَت مذكرات إلى النائب العام، والكنيست. تحدثت مع وسائل الإعلام، وبعثت بالرسائل إلى العديد من منظمات حقوق الإنسان. لم تترك منصّة من دون أن تستغلها لعرض قضية ابنتي، وللمطالبة بالتضامن معي، والضغط على إدارة الاحتلال للإفراج عني. وبسبب ذلك كله نجحت في انتزاع التصريح بزيارة ابنتي في هداسا.

ثم جاءت فيليتسيا، وحكيت لها عن صدمة زيارة ابنتي، كما حكيت لها عن مساومة الاستخبارات لي. وعلى الرغم من استغراقي في حزني وقلقي، لاحظت تصاعد الدم إلى وجهها الجميل، حتى غدا مثل تفاحة شديدة الاحمرار.

قالت: لم أفكر قط في أن بيننا أناس بمثل هذا الانحطاط. كنت قبل هذا أخجل من انتمائي إلى هذه الدولة، وإذا كنت أخجل منها مرة، فأنا الآن أخجل مئة مرة، بل ألف مرة.

واصلت فيليتسيا عرض قضيتي في كل فرصة تسنح لها، وهي التي كانت كثيرة الظهور أمام المنتديات الدولية، ودائمة الحضور في الإعلام الإسرائيلي. ومثلما حدث معي، نجحت في انتزاع تصريح لتيسير العاروري، خال ابنتي، لزيارتها في البيت، وتصريح آخر لي لزيارتها، وكان الحي الذي نسكنه يتحول إلى ثكنة عسكرية، والرهبة تخيّم على ساكنيه. وكان النجاح الأهم انتزاع إفراج عني بعد ٢١ شهراً من الاعتقال الإداري، سابقاً رفاقي إلى الحرية بأشهر طويلة.

لم يمضِ وقت طويل حتى أغلقت فيليتسيا باب مكتبها وباب بيتها ورحلت هي وزوجها موشيه لانغر إلى ألمانيا. هناك استقرت، وتركتنا من دون جواب لتساؤلي: هل كانت حكايتي معها، وربما حكايات كثيرين من موكّليها، السبب الذي دفعها إلى اتخاذ القرار بالرحيل؟

ثم جاء رحيلها الأخير من الدنيا قبل أن نسدد لها شيئاً من هذا الدين الكبير المعلق في رقابنا.

كنا، نحن موكّليها، قد بادلناها حباً بحب، وثقة بثقة، وكثيراً ما تساءلتُ هل ساعدها ذلك على تخفيض منسوب رهاب الغربة التي لا بد من أنها عاشتها، وخصوصاً بعد رحيل رفيق عمرها؟

فيليتسيا الصديقة والرفيقة والإنسانة الجميلة، ستبقى ذكراك في عقولنا وقلوبنا ما حيينا. ■